ذات الثوب الأرجواني

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

(تنبيه: الكلام خيالي ولا أصل له، كما ملت أن أقول وأؤكد في كل مرة)

— ٥ —

قالوا لي أمس في البيت: «قم ركب لنا هذه الستائر!»

فقلت: «ستائر؟؟ ياحفيظ!! يا ناس ما هذا الحال المقلوب؟.. في الشتاء ترفع الأستار، وفي الصيف الحامي نضعها لتزيد الوقدة وليعظم البلاء!؟ أما إن هذا لعجيب!»

قالوا: «بل هي تحجب الشمس التي بهت منها لون السجاجيد...»

قلت: «كونوا منصفين.. السجاجيد قديمة، وعسير أن نطلب من القديم البالي أن يكون له لون الجديد الطريف الزاهي.. خذوا مثلاً هذه الخادمة العجوز... هل كان وجهها مغضناً هكذا في صباها؟ أو كان شعرها كما هو الآن أبيض؟ وهل كانت عينها كعين الموتى — لا حياة فيها ولا معنى ولا تعبير؟»

قالوا: «دع الخادمة فان ذنبها اليك معروف... لو كانت شابة لأغضيت عن كل عيب»

فاعترضت على هذا الرأي السيء والاتهام القبيح لذوقي، ولكنهم ردوني إلى موضوع الستائر الذي أردت أن أستطرد عنه إلى حديث آخر، فقلت: «الأمر لله.. إنما ينبغي أن تجيئوني بالأدوات اللازمة كلها.. يعني السلم والمسامير الصالحة لعمل فني دقيق كهذا.. وهاتوا أيضاً قلماً (أي فأساً صغيرة)، فما أستطيع أن أستعمل هذا المعول الضخم، فاني كما تعلمون رجل رقيق مترف.. ثم لا بد من تمليس الحائط بعد دق المسامير فيه، وإلا بدا للعين الفاحصة متضرساً غير مستو...»

فلم يجيئوني بما كان من حقي أن أطالب به وأصر عليه؛ وإنما جاءوا بمطرقة كبيرة أحتاج في حملها إلى رجلين مني، ووضعوا في يدي مسامير كالتي كانت في فلك نوح... لا تصلح لهذا الزمن أبداً... ولكني كما لا يعرف القراء رجل تضحية — وما أكثر ما أتقبل بالصبر — ومن غير تعليق طويل — ما يمتحنني به الزمن الغادر. لذلك دعوت الله في سري أن يبيض وجهي، فان سواده الحالي كاف جداً؛ وشرعت أعمل؛ ولكن هل تركوني أعمل كما ينبغي أن يفعلوا لأكسب رضاهم بعرق جبيني؟ كلا... فقد أحاطوا بالسلم وجعلوا يصدرون إلي أوامر غير معقولة. فقلت لنفسي: «إن جدالهم عبث، فدعهم في جهلهم واتركهم ولا تجبهم فانهم يحبون الكلام. وماذا على أن يثرثروا..» ولم أجعل بالي اليهم، ولم أرد عليهم، ورجوت أن يشغلوا بالحديث والثرثرة عما عدا ذلك. ولكنهم لما يئسوا من إصغائي لهم جعلوا يهزون السلم لألتفت، فحدث ما كان لا بد أن يحدث، وما كان طفل صغير يستطيع أن يتوقعه؛ ذلك أني اضطربت وأنا على السلم، وكنت أهم بدق مسمار، فوقعت المطرقة على أصابعي لا على رأس المسمار كما كان ينبغي أن تفعل لو كان لها عقل! فصرخت.. وهل أناحجر؟؟ ثم ما أشعر إلا والسلم يهوي بي إلى الأرض... وقد كانت أيديهم عليه، وكان في وسعهم أن يمنعوا سقوطي وسقوط السلم معي، ولكني دققت أصابعي فيجب أن يضحكوا!! نعم ضحكوا، بل قهقهوا، بدلاً من أن يأسفوا أو يقلقوا علي، أو يحزنوا لما أصابني في سبيلهم، فتركوا السلم يفعل بي ما يشاء... وقد أسمعتهم رأيي الصريح فيهم وفي هذا الكفران لنعمتي، والجحود لفضلي، وفي تعريضي للمضرات، وفي أنهم إذا حاق بي مكروه في سبيلهم ضحكوا وسروا وفرحوا جدا.... ثم تركتهم ومضيت أظلع — فوق ظلعي — إلى النافذة، وكنت أفرك أصابعي لأسويها وأرد اليها استدارتها فقد عجنتها المطرقة، ولألطف الألم أيضاً فاني لست بحجر كما أسلفت، وإذا بذات الثوب الأرجواني واقفة في شرفتها تضحك كما يضحكون!! فنظرت اليها آسفاً وقلت — كما قال يوليوس قيصر حينما طعنه بروتس —: «وأنت أيضاً؟؟» ولولا أن وقع المطرقة على أصابعي لم يفقدني حبي للحياة ولم يضعف إرادتها في نفسي لتمثلت بقول القائل: «فياموت زر إن الحياة ذميمة» ولكن الحياة ليست ذميمة على الرغم من المسامير العتيقة والمطارق الطائشة التي لا عقل لها في رأسها الناشف والأهل الجاحدين والحبيبة التي يسرها أن تفرم أصابعك وتلتوى ساقك، بل هي جميلة — أعني الحياة ومرضية على كل حال وحميدة كيفما كانت — بل أعني الحبيبة أيضاً وإن كانت تسخطني ولا ترضيني، ولا أدري مالذتها التي تستفيدها من هذه المكابدة؟؟

والله إن النساء أسرهن عجيب !! هذه ذات الثوب الأرجوانى تفتح النافذة وتنظر ثم تولينى جنبها ، وما شبعت من وجهها ، ثم تدير لى ظهرها ثم تهز رأسها فينتشر شعرها الجميل ويعود كالشمسية المفتوحة ثم ينسدل على جانبى وجهها ثم ترمى إلىّ نظرة سريعة جداً يغيب عنى معناها من شدة السرعة — مضافاً اليها البعد — ثم تدخل وتختفى !! ماذا كسبت بالله من هذا ؟؟ . وما حيلتى إلا أن أهز رأسى أنا أيضاً وأقول لنفسى إن أصحاب العقول فى راحة ! ولو كانت تسمعنى لغضبت ، ولكنها بعيدة فأنا أقول ما أشاء وأنا آمن ! . .

ومكايدة أخرى . . ظهرت — لى — فى الشرفة يوماً فى ثوب أزرق لا أحبه ، وكنت لا بساً ثيابى ومتهيئاً للخروج فما أستطيع أن أقضى حياتى فى شرفة — كما تفعل هى — وإذا بها تدخل ثم تعود فى ثوب أبيض جميل من الحرير الأبيض له شقتان واحدة على الصدر والأخرى تحتها على سائر البدن إلى القدمين ، وعلى رأسها قبعة بيضاء كقلبها — مجازاً فما فتح لى قلبها إلى الآن — تثنى حافتها على حاجبها الأيسر دلالاً . فقلت لنفسى : « إلى أين إن شاء الله ؟؟ وإنها لحادثة فما رأيتها قط تخرج ، بل هى بشرى بنعش الأمل ، إذ ما دامت تخرج فلا موجب لليأس ، وإذا بها بعد قليل خارجة من باب البيت ، ولكن مع أهلها !! . فسبحان الله العظيم !! وهل كان لا بد من هؤلاء الأهل ؟ ما فائدتهم أو ما الضرورة اليهم على كل حال ؟؟ ثم إن الأهل لا داعى للحرص على الاتصال بهم وملازمتهم لأنهم فى الحقيقة ثمرات المصادفة البحت والاتفاق المحض . الأخ مثلاً شىء يجىء مصادفة .. ولو كان أبى — ولست أتكلم عن نفسى وإنما أضرب مثلاً تأييداً لنظريتى ليس إلا — أقول لو كان أبى مات قبل أن يموت بأربع سنوات أو خمس — وهو قد مات على كل حال ، فما ضر أن يموت قبل ذلك ؟ — لما صار لى أخ ، ولكنه اتفق أن عمر أبى طال أكثر مما كان ينبغى — إذا اعتبرنا التربية والاسراف الذى لم يدع لنا ميراثاً يستحق الذكر — فصار لى أخ كان من الممكن ألا يكون لو أن أبى كان عاقلاً مقتصداً — على الأقل فى الأبناء — وقل مثل ذلك عن الأب والأم وأبناء العم وبنات الخال إلى آخر هذا البلاء الطويل فانهم جميعاً أقارب بالمصادفة ليس إلا . . . فلماذا يجب أن أحبهم وأراعى مزاجهم وأتحرى مرضاتهم ؟؟ ولا بأس بالحب فانى مستعد أن أحب الدنيا كلها ما دام هذا الحب لا يضايقنى ولا يفرض على أعباء لا أطيقها أو لا أستسهل حملها . . ولكن الملازمة وتوخى المرضاة هذا تكليف ثقيل جداً . هذه المسكينة مثلاً لا بد أن تخرج مع أخيها أو أبيها أو لا أدرى من أيضاً من هؤلاء الذين هم أهلها بالصدفة . . . لماذا ؟؟ ماذا جنت ؟؟ ما ذنبها هى إذا كان هذا أو ذاك قد شاء أن يكون أخاها أو عمها أو أمها ؟ . . لماذا لا تخرج وحدها فيتيسر أن تشعر بأن لها وجوداً خاصاً مستقلاً عن وجود هؤلاء الآباء والأمهات والأخوة والأعمام والخالات الخ ؟؟ والحق أقول أنى تحسرت عليها ولها ، فانها مسكينة ولا شك تحيا حياة مرهونة بحيوات أخرى على حين لكل من هؤلاء الآخرين حياته الخاصة المستقلة التى لا علاقة لها بحياة هذه الفتاة

وقد كانت تضحك وهى واقفة تنتظر الترام مع أقرباء الصدفة ومن حقها أن تضحك ، فقد نزلت الى الأرض وداست قشرتها الصلبة بقدميها الصغيرتين وركبت الترام — أو هى ستركبه بعد دقيقة — ورأت الناس عن قرب بعد أن كانت تراهم عن بعد كالأشباح ، وألفت نفسها سابحة فى لجة الحياة التى لا يمكن أن تحتها أو تدركها وهى فى شرفتها . . . نعم كانت فى المريخ تحلم بدنيا لا تعرفها فهبطت اليها وصار الحلم حقيقة والظن يقينا . . . فلها أن تضحك وتسر

وأنا ؟ أنا أبدى لها المودة فتتلقاها بهذه الجفوة والنفور والتخنث والتدلل كأنما أسىء اليها بحبى لها ، وأجنى عليها بميلى اليها ، أو كأنما من الشتم لها أنى تركت مئات ومئات من الفتيات وآثرتها عليهن جميعاً ! ! فلو أنى كنت أبدى لها الكره والاستخفاف والاشمئزاز أكانت تقابلنى بشر من هذا ؟؟ كلا ! بل كانت حينئذ تتعمد أن تبدو لى وتتكلف أن يكون ظهورها فى حقل من الزينة ، لأنه كان يشق عليها فى تلك الحالة أن رجلا لم يَصْبُ اليها ، ولم يفتنه جمالها ، ولم يسب لبه حسنها ، وكان هذا الاحساس خليقاً أن يدفعها الى التحدى — غير أنه تحدى ينطوى على استجداء للاعجاب من الرجل . وأنا أقول الاستجداء وأعنى ما أقول بلا نقص . ذلك أن الجمال هو السلاح الوحيد الذى وُهِبَتْهُ المرأة ، وليس لها فى كفاحها فى الحياة سلاح غيره ، فاذا فقدته فحكمها هو حكم كل مناضل ليس له سلاح ، وصار أعزل لا يملك كرا ولا فرا ولا مصاولة ولا محاورة ولا مداورة . وماذا يملك الأعزل أمام الشاكى إلا أن يذعن لقضاء

الله فيه ولتحكم القوة المسلح ؟ ؟ ولا فرق بين أن تفقد السلاح الذى تصول به وتجول ، وبين أن يثبت لك أنه قد صار لا فعل له فان عمل السلاح وغريته أن يحدث أثره لا أن يكون فى يدك والسلام . فاذا لم يكن له أثر كأن يكون قد فله شيء ، أو لاق ما يثنيه أو يرده أو ما يصبر على وقعه ولا يتضعضع أمامه ، فهو وعدمه سيان ؟ كذلك المرأة — إذا فقد سلاحُها قيمتَه فلم يعد جمالها يحدث أثره المطلوب فى نفس الرجل فانها تكون فيما تحس حيال هذا الرجل عزلاء لا حول لها ولا طول فلا يسعها إلا أن تخضع وتذعن وتروح تستجدى العطف وتلتمس الرضى ، وتتوصل اليه باللين والصانعة والتحبب والاغراء بعرض كل ما عندها من المفاتن . وكأنى بذات الثوب الأرجوانى قد خيل اليها أنها قد ضمنت حبى واستوثقت منه ، فهى لا تبالينى لأنها فى ظنها منى على يقين ، وأولى بها أن تعنى بغزو قلب غير قلبى — قلب آخر لا يزال مستعصيا عليها نابيا فى يديها — أما أنا فقد علق جناحى بالشرك فكيف الفكاك وأين المهرب ؟ وهذا ظن كل امرأة معشوقة من الرجل الذى تعرف أنه يحبها وتأنس منه الصبر على دلالها ، وليس يصرفها عن ذلك إلا أن تساورها الشكوك ، وتدور فى نفسها الوساوس ، ويحك فى صدرها الخوف من ملل الرجل وضجره من هذا العبث . ولو كانت تعرفنى لخافتنى فما أنا ممن يصبرون على هذا اللعب . وإنى لأحبها — أو هكذا يخيل إلىّ — ولكنى فيما أظن أحب نفسى أيضا . وحبى لها هو بعض حبى لنفسى ، وليس الأمر على العكس ، وحب الرجل للمرأة معناه أنه يريدها خالصة لنفسه ، لينعم بها وحده ، ويستأثر بالمتعة المستفادة من جمالها . وليس معناه أنه يريد أن يعذب نفسه وينقص عيشه ويسود وجه الحياة فى عينيه . أما حب المرأة للرجل فمعناه أنها رأته — بغريزتها لا بعقلها فانها تنقاد لغريزتها ولا تفكر بعقلها — أحق رجل بامتلاك زمامها والسيطرة عليها وأكلها وهضمها . فالرجل يحب نفسه حين يحب المرأة أما المرأة فانها تطلب الرق وتسعى للتضحية الكبرى حين تحب الرجل . فهو لهذا أنانى فى حبه ، وهى لهذا مضحية فى حبها . فليس عجيباً أن تحتمل هى المكاره فى سبيل الحب لأن حبها تضحية كبرى فأولى أن تصبر على التضحيات الصغرى ، بل العجيب ألا تصبر ولا تحتمل . أما الرجل فهو كما قلت أنانىّ فلا صبر له على تضحية ولا احتمال منه للعذاب إلا وهو كاره أو عاجز عن الفوز بالراحة ، لأن طبيعة حبه لا تبيح له أن يفهم هذه التضحية ولا تجعله مستعداً لها . ومن هنا كانت المرأة أوفى وكان الرجل أغدر بالمعنى الشائع لا الحقيقى ، فان الوفاء من الرجل افلاس نفسى وخيانة لطبيعته التى فطر عليها . وهذا هو الأصل ولذلك رأينا الرجل فى تاريخ الانسانية يتخذ المرأة والمرأتين والثلاث والأربع وتكون له الجوارى فضلا عن الزوجات أو من هن فى حكمهن ، ولم نر المرأة تتخذ من الرجال اثنين أو ثلاثة أو أربعاً ، إلا أن تفعل ذلك سراً وخفيةً واعلانٍ . ولكن الرجل لم يكن يعمل هذا سراً بل جهراً ، وكان يقيمهن فى بيت واحد . وكانت المرأة ترضى وتذعن وتسعى سعيها لتكون هى الأثيرة لا الوحيدة . وكان الرجل لا يكف عن الاشتهاء والتطلع الى غير الموجودات ، والتبرم بالموجودات ، وهذا هو قضاء الطبيعة وحكم الفطرة فى الرجل والمرأة . فمن كان يشق عليه أن يقرأ هذا فليتدبر تاريخ الانسانية قبل أن يفتح فمه ، وليحاول أن يعلل هذا التاريخ على وجه مقبول معقول قبل أن يعترض . ثم فليتأمل حاضر الانسان وليسأل نفسه عنه أتراه يختلف عن الماضى إلا فى المظهر دون المخبر والجوهر ؟ ؟

فالوفاء — فيما يتعلق بالرجل — أكذوبة ومناقاة للطبيعة ، ولكنه فيما يتعلق بالمرأة صدق واخلاص للطبيعة ؛ ومن هنا أن المرأة لا تزال تتهم الرجل بالغدر والتحول والتقلب وقلة الثبات . وهذا هو تفسير الغيرة الشديدة من جانب المرأة ، وهى غيرة لا تقاس اليها غيرة الرجل مهما عظمت ، لأن غيرة الرجل على امرأته هى كغيرته على كل ما يملك ؛ فاذا أمن أن يضيع ملكه لم يبال ما دون ذلك مبالاة تذكر ؛ فغيرته فى الكليات لا فى الجزئيات والتوافه ، ولكن غيرة المرأة مرجعها إلى ادراكها — بغريزتها الذكية التى تهديها فى حياتها — إن الرجل لا يستطيع الصبر على الوفاء ، ولا يملك إلا أن يتحول ويتقلب فى حبه ، وإلا أن يصرف قلبه من هنا إلى هنا ، فكل حركة منه أو لفتة نذيرٌ منه عندها بوشك هذا التحول ، وفقدان ما كان لها عنده من مقام ومنزلة وايثار ، وعودتها واحدة من مئات الآلاف اللواتى لا يبالين ولا يحفلن ولا يحسن أو يفطن إلى وجودهن ، فهى غيرة على الوجود وكل ما ينطوى عليه من الحقوق والمزايا ، ولذلك لا تنفك مشبوبة مضطرمة

ومن حق ذات الثوب الأرجوانى أن تغار وتقلق ، ويجب